مقوّمات النّصر

من منظورٍ قرآني

□ الشيخ محمّد أبو الخير(*)

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

النّصر في الحروب والصّراعات من الأُمور المهمّة التي يسعى إليها المتحاربون، ولكنّ لذلك شروطاً ومقوّمات لا بدّ من تحقُّقها، وقد اهتمّ القرآن الكريم بتوضيح هذه المقوّمات؛ كي يوفّرها المؤمنون.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ النّصر العسكري ـ على أهمّيته ـ ليس هو الهدف الأساس الذي يبتغيه المؤمن في صراعه لأجل الحقّ والعدالة، وإنّما الهدف الحقيقي الذي يحقّق مبتغى المؤمن هو الوصول إلى رضا الله سبحانه وتعالى والسّعي إليه:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

والشّروط التي يراها القرآن الكريم لتحقّق النّصر متعدّدةٌ وتتّفق في بعضها

(*) باحث إسلامي/ العراق.

مع الشّروط والمقومات التي تراها القوى التي لا ترتبط بالسّماء، ولكنّها تتميّز عنها بمجموعةٍ من هذه المقوّمات، فوفق الموازين المادية فإنَّ النّصر حليف من يمتلك أقوى الأسلحة، والترسانات الضّخمة، والعدد الهائل من الجيوش، لكنَّ القرآن يرى أَنَّ النّصر حليف تلك الفئة القليلة، التي تحمل الإيمان والاعتقاد الرّاسخ بعقيدتها، ففي آيات القرآن نرى التّأكيد الرّبانيّ على إمكانيّة انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة:

ـ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ـ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

نصر الله

عاملٌ معنويٌّ ربما لا يعيره المؤرخون الغربيون وأتباع المناهج الأرضية أيّ اهتمام، ولا يشعرون به، إلّا أنّنا نعتقد أنّه من أهمّ العوامل:

إنّه نصر الله المؤكّد للمؤمنين الحاملين لرسالته والعاملين على طرح منهجه؛ لتتوحّد الأجيال وتنتظم كُلّها في مسيرةٍ واحدة، هي مسيرة العدل والإخاء والحُرّية، فكثيرٌ من الآيات تؤكّد أنَّ النّصر الإلهي من نصيب القِوى الرّسالية العاملة في سبيله، بشرط صدقها وإخلاصها وإيمانها برسالتها وأهدافها.

أمّا إذا رحنا نلتمس الشّواهد التّاريخيّة على هذا العنصر، فإنّنا قد نبتلي بما ابتلى به المؤرّخون الذين لا يعتقدون بتأثير غير المادة، فعندما يحاولون دراسة الظّواهر التّاريخية، فهم يتصوّرون أنفسهم وقد أحاطوا بكُلّ العناصر الدّخيلة في المواقف، فلم يفلت منهم شَيْءٌ مطلقاً، في حين أنَّ أكبر نقطة ضعفٍ يمكن أن

تؤثّر على الباحث بشكلٍ عامٍّ، والباحث في سنن التّاريخ والمجتمع بشكلٍ خاصٍّ هي اعتمادهم على لقطاتٍ تاريخيّةٍ من زاوية نظرهم الخاصّة، دون دراسة جميع العناصر التي لها دخلٌ في تكوين الحدث التّاريخي، فهم غير محيطين بكُلّ عناصر الموقف، وإذا كانت الحال هذه فلا يمكن إذن الاطمئنان القاطع بنتائج البحوث التّاريخية التي تكون على هذه الشاكلة.

والواقع أنَّ أكبر نقطة ضعفٍ تواجه الماديّة في ادّعائها صفة العلمية لماديّتها التّاريخية هي هذه النُّقطة بالذّات، فإنّ دعوى الإحاطة الكاملة بجميع العناصر المؤثّرة بالحدث التّاريخيّ من الصُّعوبة بمكان، خصوصاً لمن لا يرى الأُمور إلّا من منظاره الخاص.

فعنصر (نصر الله) إذا كان لا يمكن إثباته، بمعنى عدم إخضاعه للتّجربة، فلا يمكن نفيه قطعاً، على أَنَّ هناك العديد من الحوادث التّاريخية لا يمكن تفسيرها إلّا بالنّصر الإلهي، ومنها الانتصار الرّائع لفئةٍ قليلةٍ مؤمنةٍ لا عدّة لها ولا عديد على فئةٍ كبيرةٍ مدجّجة بالسّلاح والعتاد والذّخيرة، وقد أخبرنا القرآن بالتّدخُّل السّماوي في المعارك لصالح المسلمين، ومن المدد السّماوي: الأخبار الغيبية التي كان ينزل بها جبرائيل ليحذّر الرسول ﷺ من أُمورٍ لا علم له بها إلّا من طريق الوحي، وأمثال ذلك.

فالفئة المؤمنة تملك الإيمان المطلق بالغيب، والثّقة بالله سبحانه وتعالى، ليس في الجانب العقلي والقلبي والتّطبيق العملي للأحكام الشّرعية فحسب، بل في جانب تأثير الأسباب الماديّة في الأشياء، وعلاقة الغيب في التّأثير بالنّصر، والهزيمة، والقوّة، والضّعف، والعزيمة، والفشل، فإنّ هذا الإيمان من الصّفات التي يتميّز بها المؤمنون عن غيرهم؛ لأنّ غير المؤمنين ـ بصورةٍ عامّة ـ ينظرون للأُمور من خلال الحسابات المادية في حركة الأشياء، وفي النتائج، وفي الآثار، والأسباب، والمسبّبات. أمّا الثّلّة الإيمانية، فهي تهتم بالحسابات المادية، وفي

نفس الوقت تعتقد بأنَّ القوّة الحقيقية المتعلقة بالغيب: بالله تعالى وملائكته، والإسناد الإلهي، والتّوفيق الإلهي، إلى غير ذلك ممّا يرتبط بعالم الغيب؛ لأنَّ القدرة لله جميعاً، والإمكانات بيد الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

وهذا الأمل من الأُمور التي ربّى أئمة أهل البيت عليهم السلام أتباعهم عليه، عندما تحدّثوا عن موضوع الانتظار، والفرج، وقيام القائم، من أجل إيجاد هذا الأمل، الذي لا ينطفئ في نفس المؤمن؛ ليعمل دائماً، وأمامه الأمل بالنّصر والفتح والوصول إلى الأهداف؛ لأنَّ الإنسان عندما يفقد أمله، ويتحرّك بروح التّشاؤم، وبروح اليأس، والقنوط، سوف يفقد قدرته على التأثير، والحركة الصحيحة، مهما كانت لديه من مواصفات.

وسنتعرّض إلى سرد المهمّ من هذه العوامل التي تشكّل الدّعامة الأساسية للنّصر في الصّراع الذي يخوضه المقاتلون في ساحات المعارك والمواجهات:

١. الإيمان بعدالة وأحقية القضيّة التي تؤمن بها الأُمّة، وتجاهد و تضحّي لأجلها، وفي سبيلها تقدّم أغلى ما تستطيع لتحقيق النصر فيها، وذلك عندما تتحرّك وفق منهج الله تبارك وتعالى والمبادئ المقدسة، دفاعاً عن العقيدة، ودفاعاً عن المقدسات، والتحرك لنصر الله جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

نعم، فالنّصر هو نصرُ الله، وهو النّصر الحقيقي الذي تكون ثماره حقيقيّة وباقية لفائدة الأُمّة والإنسانية، وهو وعد الله الصّادق الذي وعد به الصّالحين من عباده المؤمنين:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وتأكيداً للشّرط والجواب في قوله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

فالشّرط هو الانتصار لله سبحانه وتعالى بمعنى المسير على سُنّة الله والعمل على طاعته وامتثال أوامره وتطبيق سننه والسعي لأعمار الأرض وتحقيق العدالة والإخلاص له؛ فلأنّهم حقّقوا معيّة الله التي طلبها منهم فكان النّصر الأكيد لهم وتثبيت أقدامهم وإعطائهم العزم والهمّة على مقارعة الأعداء، فإذا تحقّق هذا الشّرط كان الله معهم كما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وهو وعده الذي تكرّم به لرسله عليهم السلام:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

فينبغي للمؤمنين المحافظة على الرُّوح المعنوية العالية، والأمل بالمستقبل، والثّقة بالنّصر والفتح، وتحقيق الأهداف، فإنَّ ذلك هو العنصر الأساس، الذي يمدُّ الأُمّة، والجماعة، والأفراد بالطّاقة على الاستمرار، وتحمُّل الصّعاب والمشكلات.

ولاينبغي لهم اليأس من النّصر الإلهي في أقصى الحالات والظروف، وأشار الكتاب الحكيم إلى أنَّ النّصر قد يأتي في لحظةٍ يبدو فيها أنْ لا أمل في النّصر، والذي يعبّر عنه بحالة استيئاس الرّسل:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

٢. القيادة المؤمنة والواعية والأمينة والرّشيدة والقادرة على تحمُّل مسؤولية قيادة الجهاد والمجاهدين، وهمّها العمل لصالح الأُمّة وعزّها ونصرها.

فحين تمتلك الأُمّة قيادةً رشيدةً فذلك يعني امتلاكها للنّصر؛ لأنَّ القيادة لها الدَّور البارز في توجيه، وتنظيم الطّاقات، ودفعها نحو الهدف المراد تحقيقه.

ومن بين الصّفات التي ينبغي أنْ يتمتّع بها القائد ـ وهي كثيرة ـ فبالإضافة إلى التّقوى: الخبرة والوعي للظّروف، ونفاذ البصيرة، والشّجاعة في اتّخاذ

القرارات، والقدرة على تمييز المصالح الإسلامية العُليا، وتكاملية الرُّؤية، كُلُّ ذلك يستدعي اختيار المكان، والزمان، والرّجال، وفق خطّة، ووفق بصيرةٍ واضحة، ثُمّ نقل هذه الرُّؤية إلى أصحابه وأتباعه حتّى يحثهم على الإقدام في مواجهة العدو، فتكون عندهم الأهلية لمواجهة العدو والتغلُّب عليه.

وهذه القيادة عنصرٌ مهمٌّ في تحقُّق النّصر، والمراقب لأحداث التّاريخ عموماً وتاريخ الرّسالات الرّبانية خصوصاً يجد بوضوح الدّور الكبير للقيادة المؤمنة في تحقيق الإنتصارات الباهرة لقافلة المؤمنين.

وكان اللازم على المؤمنين والمقاتلين السّمع والطّاعة لأمر الله وأمر الرسول والتفاني في تنفيذ أوامر القيادة؛ لأنّها تدعوهم لنصرة الله وتدعوهم لما يحييهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وهذه القيادة تعبّئ المؤمنين على القتال وتحرّضهم، وتزرع في نفوسهم الهمّة والرّوحية العالية التي تجعلهم على أتمّ الاستعداد لمواجهة أعدائهم دون الوجل من عدّتهم وعديدهم، فيكون الواحد في مقابل الكثير، كما في الآيتين من سورة الأنفال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾.

٣. الطّليعة الرّسالية، فهم أوّلاً رجال الله، ثُمّ أنّهم رجال الإسلام، وهم العمود الفقري في الجهاد.

وهذه الطّليعة كانت تمتاز عن غيرها بصفاتٍ، منها: الشّوق للشّهادة، والحبّ والولاء للقيادة الشّرعية، فكُلّ واحدٍ منهم كان يريد أنْ يتقدّم للدّفاع

عن الحقّ ولو أدّى إلى الشّهادة، فهم على عقيدةٍ بسموّ أهدافهم التي جعلتهم يستميتون في القتال دفاعاً عن تلك الأهداف، مِمّا جعلهم أكثر النّاس سعياً إلى الموت في سبيل الله، وليس محض حبّ الموت، فهم يحبّون الحياة لإعلاء كلمة الله في الأرض، وتحقيق الأمل الرّباني في وراثة الأرض، لكنّهم يسترخصون أرواحهم للأهداف السّامية، فكانوا يأملون أنْ يكونوا من أصحاب الجنّة، حيث يعيشون في ظلّ العناية الإلهية والرّعاية الرّبانية فرحين بما آتاهم الله من فضله، فهم جند الله:

﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣].

وهم حزب الله:

﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

نعم، إنّ وجود هذه الطّليعة التي هي قليلة العدد، لكنّها تتدفّق إيماناً بالله، وإيماناً بقضاياها الإسلامية العادلة، هو الذي يمكّن الأُمّة من النّصر، فهم باعوا أنفسهم لله وتاجروا مع الله، فوعدهم الله المغفرة والرّحمة ولقاء الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) ﴾ [آل عمران].

﴿ ...وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ... ﴾ [الحديد: ١٩].

وفي نفس الوقت حذّرهم من الفرار من المعركة والوعيد للمنهزمين أمام الأعداء بالعذاب الشّديد، فعليهم الوقوف أمام الأعداء، وأنْ لا يتراجعوا أمامهم، بل يكونوا كالطّود الشّامخ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].

وبيّن لهم أنّ طريق العزّة وأسس النّصر بالثبات والصّبر واستحضار عظمة

الله تعالى والاعتصام بالمدد الرباني الذي يعينهم على الثبات والوقوف بشموخ أمام أعداء الله ورسوله بقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال:٤٥].

وأوضح لهم أنَّ ما يدعو إليه الرّسول هو العزّة والسّعادة في الدنيا والآخرة، والحياة الحقيقية التي يتمنّاها كُلّ مؤمن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وفي النّهاية يجب على هذه الثّلة المؤمنة التوكّل على الله تعالى في أداء العمل، واستمراره، واستمداد العون منه تعالى؛ للتوفيق في الاختيار، وفي القدرة على أداء الوظيفة بالنحو الأحسن، وذلك في كُلّ خطوةٍ يخطونها، فيتذكّرون الله وقدرته، وإحاطته بكُلّ الأُمور، وعلمه بالمصلحة، وأنّ النصر بيده، والتوفيق بيده، واستلهامه بذلك كُلّه، فهو الموفّق، وهو الذي ينزل عليهم النّصر؛ لأنّ القدرة لله جميعاً، والإمكانات بيد الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

٤. وحدة الأُمّة والتفافها حول قضاياها الكبرى والمصيرية، باتّجاه تحقيق أهدافها، والتي تتمثّل بوحدة القرار والموقف، وهو أمرٌ يرتبط بوحدة القيادة، والالتفاف حولها، وبوحدة الهدف والمعركة، في تركيز اهتمامها على مواجهة الطغيان، والاستبداد. هذه الوحدة تعطي الأُمّة القوّة والعزّة والكرامة والصمود في وجه التّحديات الكبرى ومؤامرات الأعداء، وقد منّ الله سبحانه وتعالى على المؤمنين؛ إذ وحّدهم بعد أنْ كانوا أعداءً متفرّقين، وجعلهم أُمّةً واحدةً مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ

ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران].

بل وصل الأمر في حثّ المؤمنين على الاتّحاد في القتال إلى درجةٍ عبّر الله سبحانه وتعالى عنها بمحبّته للمؤمنين المقاتلين إذا كان قتالهم كالبنيان المرصوص في اتّحادهم وتماسكهم مع بعضهم:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

إنَّ توحيد الصفوف واجتماع الكلمة هما الدّعامة الوطيدة لبقاء الأُمّة ودوام دولتها ونجاح رسالتها، فإنّ توحيد كلمة الأُمّة سرّ بقاء الدين الخالد، وهو ضمانة الأُمّة لحمل الرّسالة الخالدة؛ لأجل أنْ تصل إلى جميع بقاع المعمورة، وبالنهاية الفخر بأداء التّكليف الذي شرّفنا الله سبحانه بتحمّله:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال آية ٤٦].

وضرب لهم الأمثال كي يحذروا عواقب الفرقة والاختلاف بعد أنْ منّ عليهم بالدّين الحنيف والبيّنات، وهدّدهم من طرفٍ خفيٍّ؛ حيث أوضح لهم عاقبة الذين تفرّقوا بعد مجيء البيّنات:

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران ١٠٥].

ولذا حرص أعداء الأُمّة على تفريق كلمتها وتشتيت شملها وتمزيق وحدتها؛ لعلمهم بأنّ هذا الطّريق الأهمّ للتغلّب عليها.

وتاريخ الأُمّة أكّد لنا أنّ النّصر كان حليفاً لها عندما كانت يداً واحدةً، ولم يستطع الأعداء النّيل منها إلّا بعد أنْ دبّ الاختلاف فيها وصارت شيعاً، ولقد حذّر القرآن المسلمين من عاقبة الفرقة والتنازع، فقال:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران ١٠٥].

ويبيّن لهم العاقبة السّيئة التي تنتظرهم إنْ هم تفرّقوا:

﴿...وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ...﴾ [الأنفال: ٤٦].

٥. الاستعداد:

أرشد القرآن الأُمّة والمؤمنين للإعداد والأخذ بالأسباب وأهمّية التّخطيط، فقد قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

مبيّناً أنَّ التوكّل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب؛ إذ إنَّ ذلك من صميم العبودية لله، فإعداد الأفراد الرّبانيين، والقيادة الرّبانية، ومحاربة أسباب الفرقة، والاستعداد لدفع كيد الأعداء الذين يتربّصون بالأُمّة الدوائر، هذا الإعداد مهمّة الأُمّة بأجمعها. فالخطاب الرّباني موجهٌ للجميع، وشرف امتثاله كذلك للجميع.

والتّعبير القرآني: ﴿ مَا اسْتَطَعْتُم ﴾ يُشير إلى بذل أقصى حدود الطّاقة، فلا يتوانَ المؤمنون عن سببٍ من أسباب القوّة يدخل في طاقتهم، فالكُلّ مطالبٌ أنْ يعدّ كُلّ ما يمكن لأجل الهدف الذي تتوقّف عليه حياة الجماعة المؤمنة، وبالنّهاية يتوقّف عليه الهدف الإلهي من تكريم الإنسان بالخلافة على هذه الأرض:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ... ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إنَّ ساحة الصّراع التي اختارها الإنسان عندما حمل الرّسالة التي أشفقت من

حملها السّماوات والأرض يتطلّب منه الاستعداد الدّائم والحقيقي في جميع الميادين التي تهيّئ مستلزمات تحقيق الأمل الرّباني، وهو بسط العدالة في الأرض.

فالتّخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجه الإنسان في عمله أو حياته في المستقبل.

ومساحة الاستعداد والإعداد تشمل جميع المجالات، فهناك الإعداد الاقتصادي، والإعداد الإعلامي، والإعداد الأمني، والإعداد العسكري. وهذا الاستعداد وبذل النّفس وعدم التخلف عن الرّسول الأكرم ﷺ هو من العمل الصالح، وكُلّه بعين الله سبحانه وتعالى، وأجر المؤمنين محفوظٌ لهم، قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فالإسلام لم يتجاهل موازين القوى في معاركه العسكرية، ولم يقل لمعتنقيه: إنَّ الإيمان والعزيمة كافيان لتحقيق الانتصار ـ على الأهمية التي يوليها الإسلام لهذين العنصرين ـ بل حثّهم بالإضافة إلى ذلك على مواصلة الإعداد واختيار اللّحظة المناسبة بعد تقدير الموقف بكُلّ تفاصيله، والإعداد لوقت القتال والمنازلة مع الأعداء الذين هم أيضاً يعدون العدّة كذلك، ويحاولوا ما أمكنهم لدحر الإيمان وأهله.

وعد الله المؤمنين بالنّصر والإمداد الغيبي ومؤازرة الملائكة لهم في جهادهم، ولكن لا بدّ من التّخطيط والاستعداد، وتغيير أنفسهم، وجعلها ملائمةً لما أمر الله به، فقد جعل الله سبحانه وتعالى سنناً لا بدّ من رعايتها ليصل الإنسان إلى

مراده، وإذا لم يراع ذلك، فالفشل نصيبه مؤمناً كان أو كافراً:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فلا بدّ من تنظيم صفوف الأُمّة، وإحكام العلاقات بينها، وإعداد عناصر القوّة والقدرة فيها، وتفجير الطّاقات والإمكانات، باستثمارها، وترتيب التكامل بينها.

الرعب

ونختم المقال بالحديث عن سلاحٍ خفيٍّ أيّد الله به أنبياءه والمؤمنين من عباده، وهو سلاح الرّعب، وأهمية هذا التّأييد والسّلاح واضحة؛ لأنّ السّلاح مهما كان متطوّراً فتاكاً لا يجدي نفعاً إذا سُلِب صاحبه إرادة القتال، وتضعضع جانبه المعنوي.

ولذا اعتبر المختصُّون أنّ السّلاح المعنوي (تقوية معنويات المقاتلين وتضعيف روحية العدو وجنده) من أهمّ عوامل النّصر، ومن أجله ترصد الدّول والمتحاربون الأموال والإمكانات الطّائلة، ويخصّصون له الوسائل والخبرات الكثيرة.

وسلاح الرُّعب والخوف، وسلب المعنويات من أمضى وأظهر الأسلحة التي أيّد الله بها نبيّ الإسلام ﷺ في صراعه المرير مع قوى الشرك والنفاق والكفر.

وإذا أردنا أنْ نعرض لوحة توضّح للقارئ الكريم صورةً لهذا التّأييد الإلهي من جهةٍ، وتوضّح التّأثير البالغ لهذا السّلاح من جهةٍ أُخرى، فنذكر مواجهة النّبي ﷺ مع بني النّضير، ألقى الله الرُّعب في قلوب اليهود حتى استوعبها كُلها، فتغيّرت المعادلة من الكبرياء والغرور إلى الهزيمة النّفسيّة.

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا

وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢].

وحينما يهيمن الرُّعب على القلوب، فإنّه يفقد العدوّ القدرة على التّخطيط السّليم؛ لأنّ من أهمّ ما يحتاجه الإنسان لكي يكون تفكيره منطقياً معقولاً هو الاستقرار والاطمئنان الدّاخلي، فتشلّ قوى المقاتلين.

وقد فقد اليهود معنوياتهم، فخرجوا من التّعقُّل إلى الانفعال، فصاروا يخطّطون ويعملون ضدّ أنفسهم من حيث لا يشعرون؛ حيث راحوا يهدمون بيوتهم بأيديهم حتّى لا ينتفع بها المؤمنون ـ بخيالهم ـ أو حتّى تصبح ركاماً فتمنع الخرائب تقدّم المسلمين ـ بوهمهم ـ وتكون حائلاً دون سيطرة قوى الإيمان عليه، وغاب عنهم أنّهم أظهروا بذلك التّصرُّف هزيمتهم للمسلمين، وخوار عزائمهم ممّا قوّى معنويّات عدوّهم، فصاروا متيقنين بالنّصر بعد أنْ كانوا لا يظنّون بأنّ اليهود يخرجون من ديارهم[1].

وفي الختام لا بدّ من الإشارة إلى أهمّية الدّعاء وطلب النّصر من السّماء، والاستمداد من الغيب الذي هو المدد الحقيقي للمؤمنين، ونجد في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام لأهل الثّغور صوراً رائعةً للوثوق بالمدد الإلهي واستمداده من ساحة الرّبوبية:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَحَصِّنْ ثُغُورَ الْمُسْلِمِينَ بِعِزَّتِكَ، وَأَيِّدْ حُمَاتَهَا بِقُوَّتِكَ، وَأَسْبِغْ عَطَايَاهُمْ مِنْ جِدَتِكَ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَكَثِّرْ عِدَّتَهُمْ، وَاشْحَذْ أَسْلِحَتَهُمْ، وَاحْرُسْ حَوْزَتَهُمْ، وَامْنَعْ حَوْمَتَهُمْ، وَأَلِّفْ جَمْعَهُمْ، وَدَبِّرْ أَمْرَهُمْ، وَوَاتِرْ بَيْنَ مِيَرِهِمْ، وَتَوَحَّدْ بِكِفَايَةِ مُؤَنِهِمْ، وَاعْضُدْهُمْ بِالنَّصْرِ، وَأَعِنْهُمْ بِالصَّبْرِ، وَالْطُفْ لَهُمْ فِي الْمَكْرِ»[2].

وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ...

* * *

الهوامش:

(١) فليراجع في هذا المجال الكتب التفسيرية التي تعرّضت لتفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢].

(٢) الإمام السّجاد، علي بن الحسين عليه السلام، الصّحيفة السّجاديّة الكاملة: ١٢٦، الطبعة الأُولى ١٤١٨هـ نشر: دفتر نشر الهادي، قم.